النقد العربي القديم في القرن الرابع والأثر اليوناني /قدامة بن جعفر أنموذجا..

كانت حركة الترجمة في القرنين الثاني والثالث،قد قربت بين الثقافات من هندية وفارسية ويونانية وعربية وفتحت عيون المثقفين على مصادر علمية وفكرية جديدة...تناولت المترجمون على وجه التحديد كتاب الشعر من جديد الذي كان مرجعية لها الأثر الواضح رغم العيوب التي ألحقت بترجمة النص ...يعتبر قدامة بن جعفر من الوافدين في إشتغاله النقدي بشكل واضح على الثقافة اليونانية التي كانت من أبرز المؤثرات في عمله والتي أسست لرؤية نقدية جديدة في الدرس النقدي العربي خاصة على مستوى المصطلح،إذ كان ممن يشار إليهم في علم المنطق،يظهر ذلك جليا في كتابه صناعة الجدل والخراج الذي يدل على ثقافة قدامة الحسابية الدقيقة والذي كان صدى لكتاب أرسطو،فقد قال فيه أبوحيان التوحيدي:(عرض علي قدامة كتابه سنة عشرين وثلاثمائة وأخبرته فوجدته قد بالغ وأحسن وتفرد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى...أبو حيان التوحيد ،الإمتاع والمؤانسة)..نستنتج من نص أبي حيان قضية جوهرية تجعلنا نقول أن قدامة بن جعفر قد دخل مجال النقد من جهة وصف فنون البلاغة وهو يعني بالوصف مايمكنني أن أسميه؛١_ بوضع المصطلح البلاغي,من جهة وتحديد خصائص اللفظ والمعنى،إذ يتضح ذلك جليا في كتابه نقد الشعر منحازا فيه لتقدير المعنى،مما مكنه من تأليف كتابه الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام ..يتضح لنا إشتغال قدامة في النقد الأدبي في موضوع نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه اذا سلمنا بأن الفعل النقدي هو تخليص الجيد من الرديئ،هذا تحديدا مايؤسس لمشروعية الفعل النقدي عند قدامة،إذ يتضح ذلك في معنى قوله أنه :(فأما علم جيد الشعر من رديئه فإن الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلم ،فقليلا مايصيبون ؛ولما وجدت الأمر على ذلك وتبينت أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر ،وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه ،رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع ...قدامة بن جعفر ،نقد الشعر .الصفحة٢) ..يتضح لنا من خلال نص قدامة على غير سابق عهد بالموضوع بهذا التحديد المعرفي أن قدامة يصنف النقد ضمن العلم(فأما علم جيد الشعر)،إذ ندرك أن الرجل حدد صفة النقد وحقله وآليات اشتغاله حين وسمه بالعلم ...فالنقد علم مجاله تخليص الجيد من الرديئ،مما يحيلنا على فكرة إبعاده لإشتغالات تخصصات أخرى كعلم العروض والوزن والقوافي والغريب واللغة والمعاني..فليس ممايدخل في باب النقد وفق إحسان عباس في تاريخ النقد الأدبي القديم ..ألا تلاحظون معي أن هذا التصنيف يخضع بشكل واضح لمنطق رياضي واضح يقوم على تقسيم وحدات العمل النقدي وفق خانات معينة ...؟ففي تعريفه للشعر يقول (الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى ..قدامة ،نقد الشعر ص ٢)..فعلى حد تخريج إحسان عباس؛كلمة قول:بمنزلة الجنس ،موزون فصل له عما ليس بموزون ،ومقفى فصل عما هو موزون ولا قوافي له،ودال على معنى فصل له عما يكون موزونا ولايدل على معنى ..إحسان عباس ..م س ..ص ١٧٩..).يتجلى المنطق الأرسطي في هذا التقسيم التصنيفي واضحا ،إذ تشعر وأنت تقرأ لقدامة كأنك أما معادلات رياضية مجزأة وفق منطق واضح ..فقد مكنه أتباعه للمنطق الأرسطي من تحديد مجالات الإشتغال لدى العلوم فتمكن بذلك من فص النقد عن البلاغة والعروض والنحو ولفت الإنتباه إلى قضية التخصص حين أفرد للنقد مجالا خاصا به،فلاحظ أن الناس أكثروا في التأليف في تللك العلوم وقصروا في علم النقد ..وفي معنى قول إحسان عباس ؛أن فكرة انشغال قدامة بالتحديد والتقعيد واضحة تمام الوضوح فقد كان الرجل يحس بما انتشر من فوضى ذوقية،فقد حول النقد إلى منطقية ذهنية وقواعد مدرسية ووضع له مصطلحا...ص١٨٦.تمكن قدامة من خلال منطقه الأرسطي أن يؤسس لعلمية النقد وأن يؤسس للمصطلح مما جعلنا نصنفه كمحطة حاسمة في تاريخ نقد القرن الرابع الهجري، فقد تمكن من إرساء قواعد خاصة للنقد المنهجي ..